AL-SABAH
الصباح
الإسلامية

No. 3980 | الأربعاء 14 شوال 1442 هـ | 26 مايو 2021 م | السنة الرابعة عشرة
Alsabah Media www.alsabahpress.com

بلاغة «الصديق» و«الفاروق» و«سيد الشعراء»

قوة الصحابة «الناعمة» في الدفاع عن الدين

إعداد : هذال المطيري

ليس هناك أحد يجهل من هو أبوبكر الصديق صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأول الخلفاء الراشدين عليهم رضوان الله أجمعين خير من طلعت عليه الشمس بعد الأنبياء والمرسلين ولكن الأمر الذي يخفى على كثير من الناس ان ذلك الصحابي الجليل شاعر ارتقى بشعره عن السقوط مثلما ارتقت نفسه عن أراذل الأمور. وللصديق قصائد تزخر بها كتب الأدب العربي فقد ورد بعض منها في السيرة النبوية لابن هشام والسيرة النبوية لابن كثير وجمهرة أشعار العرب وطبقات ابن سعد وغيرها وسوف نقف على بعض أشعاره.

من خلال السياق التالي يقول في أهل الطائف وهم من ثقيف عندما أبوا الدخول في الإسلام وصدوا الرسول صلى الله عليه وسلم متوعداً إياهم بالحرب ان لم يهتدوا:

ولقد عجبت لأهل هذا الطائف
وصدودهم عن ذا النبي الواصفِ
ومن الإله فلا يرى في قوله
خلف وينطق بالكلام العارفِ

ولم يقف الصديق عليه رضوان الله على التهديد بالحربِ بل توعدٍ القوم بعذاب الله وانه مصيبهم ما أصاب عاداً فيقول مستمداً المعنى من قوله تعالى: رضي الله عنهوأمّا عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية).

أويهلكوا كهلاك عاد قبلهم
بهبوب ريح ذات ساف عاصفِ

وحول خبر الإسراء يقول الصديق رضوان الله عليه:

عجبت لما أسرى الإله بعبده
من البيت ليلاً نحو بيت مقدّس

ويروي رضي الله عنه هجرته مع خير الورى صلى الله عليه وسلم:

وهاجر أرضهم حتى يكون لنا
قوم عليهم ذوو عز وأنصارِ
حتى إذا الليل وارانا جوانبه
وسد من دون ما نخشى بأستارِ
سار الأريقط يهدينا وأينقه
ينعين بالقرم نعيا تحت اكوارِ

والأريقط هو عبدالله بن الاريقط وقيل الارقط الذي استأجرهَ الرسول عليه الصلاة والسلام ليدلهما على الطريق.

وامتدح الصديق من هو أهل لذلك امتدح رجالاً صدقوا ماعاهدوا الله عليه امتدح من يُؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه في غزوة أحد عندما تشتت الجمع ثبت مع من ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وشلت احدى يديه عندما وقى بها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يقول الصديق عليه رضوان الله:

حمَى نبي الهدى بالسيف منصلتاً
حتى إذا انكشفوا حامى عن الدينِ
صبراً عن الطعن إذ ولت جماعتنا
والناس من بين محروم ومغبونِ
طلحة بن عبيد الله قد وجبت
لك الجنان وتزويج الدمى العينِ

كما يشيد الصديق رضي الله عنه بالأنصار ويذكر مواقفهمَ وذبّهم عن الإسلام في قصيدة بدأها بتذكر الديار وبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم مبينا فضل الإسلام يقول:

وآزره أبناء قيلة فابتنوا
من المجد بنيانا اغر مشهرا
وسماهم الأنصار أنصار دينه
وكان عطاء الله أعلى وأكبرا
وآووا رسول الله إذ حل دارهم
بلا ضجر خلقا سجيحا ميسرا
ولم يمنحوا الأعداء إلا مقوماً
أصم ردينياً وعضباً مذكرا

وأبناء قيلة هم الأنصار نسبة إلى أمهم قيلة بنت الارقم بن عمرو بن جفنة بن عمرو مزيقياء وهي أم للأوس والخزرجٍ. وفي غزوة عبدالله بن جحش حين قالت قريش أن محمداً وأصحابه سفكوا الدماء في الأشهر الحرم والقصة ان الرسول صلى الله عليه وسلم بعث عبدالله على رأس سرية من ثمانيةٍ من المهاجرين إلى موضع بين مكة والطائف ليترصدوا قريشاً ويعرفوا أخبارها فمرت عليهم عير تحمل تجارة لقريش فيها أربعة رجال وذلك في آخر شهر رجب الحرام فقالوا: والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتعن منكم به ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فيٍ الشهر الحرام فترددوا ثم شجعوا أنفسهم عليهم فقتلوا واحداً وأسروا اثنين وأفلت واحد فأخذوا العير والأسيرين وقدموا على النبي صلى الله علٍيه وسلم في المدينة فأنكر عليهم ذلك وقالت قريش ان محمداً وأصحابه قد استحلوا الشهر الحرام.. يقول الصديق في ذلك:

تعدون قتلاً في الحرام عظيمةً
وأعظم منه لو يرى الرشد راشدُ
صدودكمُ عما يقول محمدٌ
وكفرٌ به والله ربيَ شاهدُ
واخراجكم من مسجد الله أهله
لئلا يرى في البيت لله ساجدُ

وواقد هو واقد بن عبدالله التميمي الذي رمى ابن الحضرمي بسهم فقتله ويصف شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين حين فر المسلمون ولم يثبت معه إلا قليل من المسلمين:

حين ولّى الناسِ وانخذلوا
هرباً واحمرت الحدقُ
شدّ كالليث الهزبر وقد
عظم الاشجانِ والقلقُ
لم يخب اذ شد جمعهمُ
والقنا إذ ذاك تأتلقُ

وللفخر في حياة الصديق، جانب كبير.. يقول في إحدى قصائده واصفاً ما حل بالمشركين على أيدي جند الله:

وقالوا: الحرب قلنا الحرب أدنى
لإبراء النفوس من اقترافِ
صباحيّاتنا كنجوم ليل
محددة كأشرافٍ الأشافي
وساقيناهمُ موتا زعافا
فلم ينجوا من الموت الزعافِ

والصديق يصف كثرة المسلمين وان أسنتهم بعدد النجوم ثَم يوضح الفرق بين قتلى الفريقين:

فآب المسلمون إلى جنان
يسقّون العضارسَ بالسلافِ
وراح المشركون إلى شراب
حميم شيب بالسم المذافِ
وأُبنا غانمين بذا وهذا
حوالي خير منتعل وحافِ

رثاء النبي صلى الله عليه وسلم

وما أشد فراق الحبيب لحبيبه وما أقسى وداع الصاحب لصاحبه سطر ذلك الصديقٍ في رثائه لسيد الأمم محمد صلى الله عليه وسلم بقوله معبراً عن كرهه في الحياة بعد أن رحل عنها الرسول إلى جوار ربه:

أيا عين جودي ولا تسأمي
وحق البكاء على السيدِ
على خير خندف عند البلاء
أمسى يُغيّب في الملحدِ
فصلى المليك وليُّ العباد
ورب العباد على أحمدِ
فكيف الحياة لفقد الحبيب
وزين المعاشر في المشهدِ
فليت الممات لنا كلّنا
وكنا جميعاً مع المهتدي

وخندف هو من آباء الرسول الأوائل والمعنى في البيت الثاني خير أبناء خندف. ويبث الصديق أحزانه وحق له ذلك فكيف لا يألم ويئن من كان صاحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمنى الصديق لو تقوم القيامة حتى لايرى وجه أحد بعد وجه حبيبه وصاحبه وإمام المسلمين يصور عظم بثه وقد هان عليه أي حادث قد يلم به ويصور فاجعته.

بلاغة عمر الفاروق رضي الله عنه

أُبدَى عمر بن الخَطّاب رضي الله عنه اهتمامًا واضحًا بالشّعر، وأُثـرَتْ عنه أقوال كثيرة، ومواقف متعدّدة تَتّصل بهذه الفن الأدبي العريق، ونحسبه من أكثر خلفاء المَسلمين وولاة أمورهم نقدًا له وآراءً فيه، وقد بَدَت أقوال هذا الخليفة العظيم ومواقفه النّقديّة التّطبيق العَمَلي لما أرسَته أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسسٍ وقواعد للكَلمَة وفن الشّعر، ونقد عُمَر للشعر نَقْدٌ رؤيوي، يمَثّل التّصَوُّر الإسلامي للأدب، ويعكس النّظرة العقديّة السّليمة إليه، يحتكم إلى معايير الدّين والخلق الإسلامي في الاستحسان والاستقباح، وفي التّنظيرَ والتّقعيد.

شَخصيّة عمَر الثقافيّة

لم يكن عمر بن الخطاب شَخصية عادية، كان متميزًا في كل شيء، وكانت عبقريّته متعدّدة الجوانب والمناحي. كان دقيق الحكم فِي كل ما يخوض فيه، حَصيف الرّأي، وَقّاد البَصيرة، ذا ملكة نفَاذَة في استنباط الأحكام السّديدة، وحسبه شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ الحق ينطق على لسانه؛ بل حسبه أن يقول أحيانًا، فينزل القرآن الكريم نفسه على نحو مما قال.

وفي مجال الشِّعر تشهد الحال بعلوِّ كعب أبي حفص في المعرفة به، والبَصَر بشأنه والعِنَاية بروايته، إنه يحتل حَيّزًا ذا بال في تفكيره واهتمامه، فهو حفظة له، واسع الرّواية لعيوته وشوَارده، وهو يحرص على الاستشهاد به وتوظيفه في كثيرٍ مِمّا يعرض له مِنْ شؤون الحياة.

قال الأصمَعي: «وما أبرم عمَر أمرًا إلاّ تَمَثّل ببَيتٍ شعر»، وقال ابن الجعدية: «ما أبرم عمر بن الخطاب أمرًا قط إلاّ تَمَثّل فيه ببيت»، وقال ابن عباس:» ما رَأيت أروَى من عمر»، وكانت فيه مَلَكة الشعر، وقد جاشت نفسه به أحيانًا، قال الشعبي: «كان عمر شاعرًا».

ومن شعره، وقد دَخَل عليه كعب الأحبار، وقال له: اعهد يا أمير المؤمنين، فإنكَ ميت بعد ثلاثة، قوله:

تَوَعّدَنـي كَـعْبٌ ثَـلاثًا يَـعُدُّهَا
وَلاَ شَكّ أَنّ الـقَوْلَ مَا قَالَ لِي كَعْبُ
وَمَا بِيَ خَوْفُ المَوْت، إنّي لَمَيّتٌ
وَلَكِنّ خَوفَ الذّنْبِ يَتْبَعُهُ الذّنْبُ

وإذا كان عمَر يمارس الشّعر إبداعًا، ثم يَرويه بعد، ويحفظه، وَيَتَمَثّل به في مواطن شتّى، فلا عجب أن يكونَ نقادة له، مميزًا حسنه عن رَديئه، قادرًا على استنباط أحكام تتعَلّق به؛ تعليلاً وتذوقًا وتحليلاً. قال عنه ابن رشيق: «كان عُمر بن الخطاب من أنقد أهل زمانه للشعر، وأنفذهم فيه بصيرة».

من آرائه النّقديّة

كانت لعمر معايير واضحة في استحسانِ الشّعر أو استقباحه، وهي معايير الإسلام وقيمه الفاضلة الخَيّرَة، وعلى هذه المعايير كان يضرب القول فيعجب به، ويستنشدَه، ويحث علي تعلمه، أِو يرفضه، ويستهجنه، وقد يحاسب – من موقعه وليًا مسؤولاً من أمور المسلمين كافة – عليه، ويجرم قائله.

كان يستحسن مثل قول الشاعر:

خَلِيلَيّ لَيْسَ الرّأْيُ فِي صَدْرِ وَاحِدٍ
أَشِيرَا عَلَيّ الَيَوْمَ مَا تَرَيَانِ
أَأَرْكَبُ صَعْبَ الأمْرِ إنّ ذُلُولَهُ
بِنَجْرَانَ، لاَ يُقْضَى بحِينٍ أَوَانِ

ويكتب به مُتَمَثّلاً إلى أمرائه وقضاته، وكان يَتَمَثّل بقولَ الأعْوَر الشّنّيّ:

هَوّنْ عَلَيْكَ فَإنّ الأُمُورَ
بِكَفّ الإلَهِ مَقَادِيرُهَا
فَلَيْسَ بِآتِيكَ مَنْهِيُّهَا
وَلاَ قَاصِر عَنْكَ مَأْمُورُهَا

وكان يعجب بقول عبدة بَن الطبيب: وَالعَيْشُ شُحٌ وَإِشْفَاقٌ وَتَأْمِيل

ويقول: «عَلَى هذا بُنيَت الدنيا».

ولكن عمر في مقابلَ ذلك نَقَدَ كثيرًا منَ الأقوال، وعَنّف قائليها، بسبب اختلال الرؤية الإسلامية فيها، لقد حبس الحُطيئة لهجائه الزّبرقان بن بدر وقوله له:

دَعِ المَكَارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا
وَاقْعُدْ فَإِنّكَ أَنْتَ الطّاعِمُ الكَاسِي

وكان قد استشار حسان بنَ ثابت فَتَأَكّد إليه أنّ هذا هو هَجاء مرّ، لما فيهَ من سخرية واحتقار، وقيل إنّه ألقاه في بئر، ولم يطلق سراحه إلاّ بعد أن اشترى منه أعراض المسلمين، وعاهده الخطيئة ألاّ يهجوَ أحدًا، وكان عمر بذلك أوّل مَن حد على الهجاء، إذ هو ضرب من القذف والسب.

كما نَهَى عمر عن التّشبيب بالنساء الأجنبيّات، والنّسيب بهنّ على الطريقة الجاهلية؛ حيث يكون ذلك بمثابة هَتْك للأعراض، وفضح للحَرائر، وقد قال للحطيئة عندما أطلق سراحه من السّجن: «شبّبْ بأهلك، وهدده إن شبّب بنساء غيره قائلاً لمن حوله: «أشيروا عليّ في الشاعر، فإنه يقول الهُجْر، وينسب بالحرم، ما أراني إلا قاطعًا لسانه»، وحَذّرَ الشّعراء من ذلك، وَتَقَدّمَ إليهم بالوعيد ألا يشبب أحد بامرأة إلاّ جلده.

وأثرت عن عمر رضي الله عنه آراء نقديّة متميزة في عدد من الشعراء، وإن من أبرزها رأيه المشهور في زهير بن أبي سلمى، روي أنه قال يومًا لابن عباس: أنشدني لأشعر شعرائكم، أو لشاعر الشعراء، قال: مَن يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير، قال: لمَ كان كذلك؟ فقال عمر: كان لا يُعاظل بين الكلام، ولا يَتتبع حوشيه، ولا يمدح الرّجل إلاّ بما فيه.

هذا نص في منتهى التّألُق والنُضج، وهو نقد معَلل، أفصح فيه عمر عن سبب إعجابه بزهير، وتسميته شاعر الشّعراء، وفيه ملمح هام من ملامح النقد الأدبي الإسلامي ذلك أنّ عمر الناقد يشيد ها هنا بركني الأدَب اللذين لا يقوم إلا بهما: وهما اللّفظ والمعنى، أو الشّكل والمضمون. لقد أثنى عمر على زهير بإجادته في هَذين العنصرين معًا، فهو ليس شاعر لفظ فحسب، يهتم بجرس الألفاظ، وجمال العبارات، ورشاقة الأسلوب؛ ولكنه يعبر بهذا الأسلوب المتميز عن معنى تافه، أو عن معنى غير نبيل، أو عن معنى يقدم رؤية فكرية غير سليمة. لا، إن زهيرًا يعبر بأسلوب جمالي فني عن مضمون جيد، وأفكار خيّرة.

قال عنه عمر: إنه ذو أسلوب سهل، وعبارة طيّعة متدفقة، لا تعقيد في ألفاظه، ولا تعثُر في تراكيبه، ينطلق كلامه بسلاسة وبَسَاطة، وبُعد عن التّكلُف آخذًا بعضه برقاب بعض

حسان بن ثابت.. سيد الشعراء

أبو الوليد حسان بن ثابت الخزرجي، أشهر شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم. مدحه في كثير من القصائد الفصيحة والبليغة، وامتاز شعره أيضا بذكر عيُوب الكفار والدفاع عن المسلمين، فكان سيد الشعراء المؤمنين. ويُعدُّ حسان بن ثابت من الشعراء المخضرمين؛ إذ عاش 60 عامًا في الجاهلية، و60 أخرى في الإسلام. قبل الإسلام كان لسان قومه في الحروب فعُرف بشاعر الخزرج. وهو من الشعراء المدّاحين، فقبل مدحه للرسَول كان يمتدح في الجاهلية الغساسنة والنعمان بن المنذر وغيرهم، وبعدما دخل الإسلام في الستين من عمره اكتسب الكثير من الألفاظ والتعبيرات من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة فزادت شعره قوة وبلاغة. ومن أشهر أشعاره في مدح النبي:

نبيٌ أتانا بعد يأس وفترة
من الرُسْل والأوثانُ في الأرض تُعبَدُ
فأمسى سراجًا مستنيرًا وهاديًا
يلوح كما لاح الصقيل المهندُ

وفي دفاعه عن الرسول وردّه على الكفار، كان لحسان بن ثابت أبيات شهيرة يتحدى بها أبَا سفيان، بقوله:

هجوت محمدًا فأجبت عنه
وعند الله في ذاك الجزاءُ
فإنّ أبي ووالده وعرضي
لعرض محمد منكم وقاءُ
أتهجوهُ ولَست له بكفءٍ
فشرُكما لخيركما الفداءُ

كما تميّز حسان بن ثابت بقوة ألفاظه وعظمة مدحه ودفاعه عن الرسول بالقول والفعل.

ويُعد حسان بن ثابت رضي الله عنه من أجلّ الشعراء أثراً، وأعظمهم مكانة في الإسلام، وترجع أهميته لأنه نافح عن دين الله تعالى، وحثا التراب على رأس كل من كفر وتطاول على نبيه صلى الله عليه وسلم، «ومما اتّفقت عليه مصادر الأدب القديم أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم أحبّ حسّان، وقربّه منه، واستمع لشعره بالمسجد النبّويّ، وبشّره عليه بجنة الخلد، وأخبره بأن شعره ملائكيٌ معه في إبداعه وإنشاده الرّوح الأمين جبريل عليه السلام».

وقد بكى حسان بدمع مدرار، وقصائد تجعل الجملود يهش بالبكاء، أسد الإسلام، وسيد الشهداء، حمزة بن عبدالمطلب في عدة قصائد، يقول في إحداها:

أبيض في الذروة منْ هَاشم
لمْ يَمُرَّ دُونَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ
مال شهيداً بين أسيافكم
شلت يدا وحشي من قاتل
كنا نرى حمزة حرزاً لنا
في كل أمر نابنا نازل
وكان في الإسلام ذا تدرأ
يكفيك فقد القاعد الخاذل

«لقد جاهد حسان بلسانه طوال العشرة أعوام الأخيرة من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان له في كل موقف من مواقف المسلمين قصائد جياد، ولذلك يعد شعره مصدرا من مصادر التاريخ الإسلامي لتلك السنوات، فقد جاهد بلسانه في يوم بدر، ويوم أحد، ورثى حمزة رضي الله عنه كما رأينا، ورثى خبيب بن عدي وأصحابه حينما غرت بهم هذيل، وهجاها هجاءً مُرا، كما رثى شهداء مؤتة: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن رواحة رضي الله عنهم»؟ يقول حسان:

رأيت خيار المؤمنين تواردوا
شَعُوبَ وَخلفًا بَعْدَهُمْ يَتَأخّرُ
فلا يُبْعِدَن اللّهُ قتْلى تَتَابَعُوا
بمؤْتَة منْهُمْ ذُو الْجَنَاحَيْن جَعْفَرُ

واستمر حسانُ يقمع المَتربصين بالإسلام، ويخمَد جذوة نيرانهم المتأججة تجاه الدين الخاتم، حتى وافى الأجل المصطفى صلى الله عليه وسلم في السنة العاشرة من الهجرة، فرثاه بأبيات تتقطر أسى ولوعة، يقول حسان المكلوم كما جاء في نهاية الأرب».

ما بال عينك لا تنام كأنما
كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعاً على المهدي أصبح ثاوياً
يا خير من وطئ الحصى لا تبعد
يا ويح أنصار النبي ورهطه
بعد المغيب في سواء الملحد
نوراً أضاء على البرية كلها
من يهد للنور المبارك يهتدي
أأقيم بعدك بالمدينة بينهم
يا لهف نفسي ليتني لم أولد

و»تكاد تخمد جذوة شاعرية حسان بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فلا نجد له شيئاً ذا بال، غير أبيات قالها في مدح الزبير بن العوام.